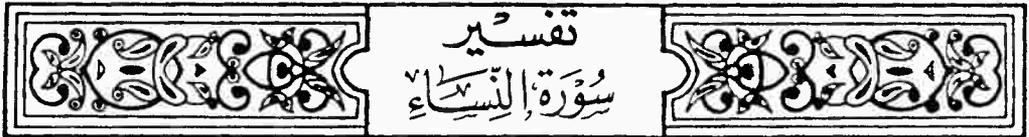


محمد ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي مطيعون له، خاضعون متذللون بين يديه، لا يشترتون بآيات الله ثمناً قليلاً، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب، وصفوتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى. وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا بُلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَامَنًا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [القصر: 52 - 54] وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: «إن أخطأ لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه» فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه. وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس قال: لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم» فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة فنزلت ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ...﴾ وقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم، بل يبذلون ذلك مجاناً. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يعني سريع الاحصاء.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ .

قال الحسن البصري: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرء، ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم. وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات. وفي الحديث: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط». ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي في الدنيا والآخرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ .

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنها لهم على قدرته التي خلقهم بها

من نفس واحدة، وهي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَمَلَئَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء عَلَيْهَا السَّلَامُ خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرآها، فأعجبته، فأنس إليها، وأنست إليه. وفي الحديث الصحيح «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمعت بها استمعت بها وفيها عوج» وعن ابن عباس: خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل، وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض، فاحبسوا نساءكم. وقوله: ﴿وَبِتَّ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أي وذراً من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر. ثم قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي سَاءَ لُونُ بَدْيِهِ وَالَّذِي سَاءَ لُونُ بَدْيِهِ﴾ أي كما يقال: أسألك بالله والرحم. وقال الضحاك: واتقوا الله الذي تعاقدون، وتعاهدون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم. وفي الحديث الصحيح: «أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض، ويحثهم على ضعفائهم.

﴿وَأَتُوا آلَ النَّسَبِ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا

كَبِيرًا ﴿٢١﴾ .

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم. وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي لا تملطوها فتأكلوها جميعاً. ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي إثماً كبيراً. أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن طلاق أم سليم لحوب» فكف، والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم، وخطأ كبير، فاجتنبوه.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آذَنٌ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٢٢﴾ .

أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليه. عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ قالت: يا ابن أخي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقتها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن، ويبلغوا بهن على سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن - ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ أي انكحوا ما شئتم سواهن،

إن شاء أحدكم ثنتين، وإن شاء ثلاثاً، وإن شاء أربعاً. قال الشافعي: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة، وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء، إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع، وقال بعضهم: بلا حصر. ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن، كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة، أو على الجواري السراي فإنه لا يجب قسم بينهن، ولكن يستحب. ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تُعْمَلُوا﴾ قال بعضهم: ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَكُمُ﴾ [التوبة: 28] أي فقراً. والصحيح قول الجمهور: ﴿أَنْ لَا تَعْدِلُوا﴾ أن لا تجوروا، يقال: عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار.

﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاكُلُوهُ هَيْبًا مَرِيئًا﴾ .

﴿نِحْلَةً﴾ فريضة. والنحلة في كلام العرب الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها. وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق. ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنيحة، ويعطي النحلة طيباً، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هي لديه بعد تسميته، أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ...﴾ .

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا

مَعْرُوفًا﴾ .

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، أي تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها، ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام، فتارة يكون الحجر للصغر، فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجر للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة للفلس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حصر عليه. ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ عن ابن عباس يقول: لا تعتمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيها امرأتك أو بنتك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم. ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ يعني في البر والصلة. وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ومن تحت الحجر بالفعل من الإنفاق في الكسائي والأرزاق بالكلام الطيب، وتحسين الأخلاق.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ .

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾ أي اختبروهم . ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ يعني الحلم . ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا . . .﴾ يعني صلاحاً في دينهم، وحفظاً لأموالهم، قال الفقهاء: إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه . ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا . . .﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية . ﴿إِسْرَافًا وَبِدَارًا﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم . ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ . . .﴾ قال الفقهاء: له أن يأكل من أكل الآخرين أجره مثله، أو قدر حاجته . ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالتي هي أحسن . ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم، وإيناسكم الرشد منهم، فحيثُ سلموا إليهم أموالهم، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم، وسلموا إليهم أموالهم لثلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه . ثم قال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي وكفى بالله محاسباً وشاهداً وراقباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم لأموالهم، هل هي كاملة موفورة، أو منقوصة منجوسة . وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تلين مال يتيم» .

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرٌ نَّصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ .

كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله هذه الآية . أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى يستون في أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم .

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْضُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ .

وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث . ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب، وإن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام، وقيل: يستحب، واختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين .

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ .

هذا في الرجل يحضره الموت فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويرده للصواب فينظر لورثته كما كان يجب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيقة. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال: يا رسول الله؛ إني ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: فالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير» ثم قال رسول الله ﷺ: «إنك إن تذر ورثك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكفون الناس». قال الفقهاء: إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي في وصيته الثلث، وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص عن الثلث. وقيل المراد في الآية: فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً. أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك فعامل الناس في ذرارهم إذا وليتهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (١١)

أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر. وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» ولما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ...﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرا به من شرا به، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ مُّخَيَّرَةٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَارْحَمْتَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكَ﴾ [البقرة: 220].

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّاتِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأَبَائِهِ الثُّلُثُ إِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِإُمَّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١)

هذه الآية الكريمة، والتي بعدها، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك. وفي الحديث «العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة». وفي الحديث «تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم، وهو ينسى، وهو أول شيء ينزع من

أمي». وقد جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا، ولا ينكحان إلا ولهما مال قال: فقال: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك» فقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ...﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤونة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق فناسب أن يعطى ضعف ما تأخذه الأنثى. وقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ...﴾ فالثلاثة فما فوق لهن الثلثان، والثلثان كذلك لهما الثلثان قياساً على الأختين، والواحدة لها النصف. وقوله: ﴿وَلِأَبْوَابِهِ...﴾ فللأم الثلث إن لم يكن أولاد ولا عدد من الإخوة، وإن كان للميت أولاد أو عدد من الإخوة فلها السدس، وتأخذ ثلث الباقي مع زوج وأب، أو زوجة وأب. وميراث الأب السدس. مع الابن، والسدس فرضاً والباقي تعصياً مع البنات أو بنات الابن، والتعصيب فقط إن لم يكن أولاد للميت. والدين مقدم على الوصية بالإجماع، وقدمت الوصية في الآية للاهتمام بها لأنها تبرع. وقوله: ﴿أَبَاؤَكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ...﴾ أي إن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر، فلهذا فرضاً لهذا وهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث. ﴿وَرِيسَتُهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي فرضه الله وقضاه والله عليم حكيم فيضع الأشياء في محالها وحسب الاستحقاق.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلِئَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَكُلَّهُمَا أَحٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِ يَوْصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَاعَفٍ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى: ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا متن من غير ولد، فإن كان لهن ولد فلکم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين. وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب. ثم قال: ﴿وَلَهُنَّ الرُّبْعُ...﴾ وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان والثلاث والأربع، يشتركن فيه. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلِئَلَةً...﴾ الكلالاة مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه والمراد هنا من يرثه من حواشيه، لا أصوله ولا فروعه. وقد روي

عن الصديق أنه سئل عن الكلاله فقال: أقول فيها برأبي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريتان منه، الكلاله من لا ولد له ولا والد، فلما ولي عمر قال: إني لأستحيي أن أخالف أبا بكر في رأي رأيته. وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد. ولكن روي أن الكلاله من لا ولد له، والصحيح الأول. ﴿وَلَهُ أَمْحٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أي من أم، كما هو في قراءة بعض السلف، منهم سعد بن أبي وقاص. وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه: أحدها أنهم يرثون مع من أولوا به، وهي الأم. والثاني أن ذكورهم وإناتهم في الميراث سواء، والثالث أنهم لا يرثون إلا إن كان ميتهم يرث كلاله فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن، والرابع أنهم لا يزدادون على الثلث وإن كثرت ذكورهم وإناتهم. ﴿عَبْرَ مُضَكٍّ﴾ أي لتكن وصيته على العدل، لا على الإضرار والجور والحيف، بأن يحرم بعض الورثة، أو ينقصه، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة، فمن سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمه وشرعه. وفي الحديث «الإضرار في الوصية من الكبائر». وقد اختلف العلماء في الإقرار للوارث على قولين، أحدهما لا يصح لأنه مظنة التهمة، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث» وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة والقول القديم للشافعي رحمهم الله، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه هي حدود الله فلا تعتدوها، ولا تتجاوزها. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيها، فلم يزد بعض الورثة، ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة، بل تركهم على حكم الله وفريضة وقسمته ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ...﴾.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ أي لكونه غير ما حكم الله به. وضاد الله في حكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم. وفي الحديث: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى وحاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة» قال: ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شتم ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾ .

كان الحكم في ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت. ولهذا قال: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ﴾ يعني الزنا. والسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك. فكان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم. وهو أمر متفق عليه. وفي الحديث: «خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، الشيب بالثيب، والبكر بالبكر، الشيب جلد مائة، ورجم بالحجارة، والبكر جلد مائة، ثم نفي سنة». وقد ذهب الإمام أحمد إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الشيب الزاني، وذهب الجمهور إلى أن الشيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية واليهوديين، ولم يجلداهم قبل ذلك، فدل على أن الرجم ليس بحتم، بل هو منسوخ على قولهم. والله أعلم.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيهِمَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ .

أي واللذان يفعلان الفاحشة فادُّوهما، أي بالشتم والتعير والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك، حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم. ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ أي أقبلوا ونزعا عما كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت. ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وقد ثبت في الصحيحين «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها» أي لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ .

يقول سبحانه وتعالى: إنما يقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك قبض روحه قبل الغرغرة. عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره. ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال الضحاك: ما كان دون الموت فهو قريب، وقال السدي: ما دام في صحته، أو ما لم يغرغر وفي الحديث «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغره» وأما متى وقع الاياس من الحياة، وعابن الملك، وخرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصيم فلا توبة مقبولة حينئذ، ولات حين ماض، ولهذا قال:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتُّتُ النَّنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ .

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ . . . ﴾ وهذا كقول الله : ﴿قَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْنَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غانر : 84 ، 85] وقوله سبحانه ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته ، ولا يقبل منه فدية ، ولو بملء الأرض ذهباً . وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب» قيل : وما وقوع الحجاب؟ قال : «تخرج النفس وهي مشركة» ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي موجعاً شديداً مقيماً .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ .

نزلت في كبيشة بنت معن ، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه ، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت هذه الآية . ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ . . . ﴾ أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقته أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك ، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضرار . ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ يعني بذلك الزنا ، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها ، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالفها . وقيل : الفاحشة المبينة : النشوز والعصيان ، واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله : الزنا والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك ، يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد والله أعلم ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم ، كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله ، كما قال تعالى : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : 228] وفي الحديث «خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي» وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يتودد إليها بذلك ، قالت : سابقني رسول الله فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني ، فقال : «هذه بتلك» ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان ينام مع المرأة في شعار واحد ، يضع على كتفيه الرداء وينام بالإزار ، وكان إذا صلى العشاء دخل منزله يسمر مع أهله قبل أن ينام ، يؤانسهم بذلك . ﷺ وقد قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب : 21] ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ . . . ﴾ أي فعسى أن

يكون صبركم في إمساكنهم مع الكراهة فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة وفي الحديث «لا يغرر مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر».

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَ بِهَتَّانَا وَإِنَّمَا مِثْلُهَا ۝٢٠﴾

أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأته، ويستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قنطاراً من المال. وفي هذه الآية دليل على جواز الأصدقاء بالمال الجزيل، وقد كان عمر رضي الله عنه نهى عن كثرة الأصدقاء ثم رجع عن ذلك. قال عمر بن الخطاب: لا تزيدوا في مهور النساء، وإن كانت بنت ذي القصة - يعني يزيد بن الحصين الحارثي - فمن زاد ألقىت الزيادة في بيت المال، فقالت امرأة من صفة النساء طويلة، في أنفها فطس: ما ذاك لك، قال: ولم؟ قالت: إن الله قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِثْلًا غَلِيظًا ۝٢١﴾

أي وكيف تأخذون الصداق من المرأة، وقد أفضيت إليها، وأفضت إليك. ﴿وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِثْلًا غَلِيظًا﴾ المراد بذلك العقد، وقيل: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٢٢﴾

يحرم الله زوجات الآباء تكريماً لهم، وإعظماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة تزوج بامرأة أبيه فأولدها ابنه النضر بن كنانة، قال: وقد قال ﷺ «ولدت من نكاح، لا من سفاح» قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، أي كانوا يعدونه نكاحاً. وهو حرام في هذه الأمة، مباح غاية التبشع. ﴿وَمَقْتًا﴾ أي بغضاً، أي هو أمر كبير في نفسه، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي وبشر طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل، ويصير ماله فينا لبيت مال المسلمين كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن، «بعث رسول الله إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله».

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ .

هذه الآية الكريمة، هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع، والمحارم بالمصاهرة. وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِكُمْ﴾، فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها، لأنها ليست بنتاً شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ فإنها لا ترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية. والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَنْهَيْتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرَّضَعَةِ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك. وفي الحديث «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة». وفي لفظ مسلم «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب» واختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية، وهذا قول مالك. وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات، لحديث مسلم «لا تحرم المصاة ولا المصتان» وممن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد. وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت في صحيح مسلم «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرم» ثم نسخن بخمس معلومات. ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور. ﴿وَأَمْهَلْتُ نِسَائِكُمْ رَبِّبِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها، سواء دخل بها أم لم يدخل بها، وأما الربيبة، وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمرها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها. والجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أم لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْإِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْنَ نَحْصًا﴾ [النور: 33] وقوله تعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم. يحترز بذلك عن الأدياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية. ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني في النكاح.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ .

أي وحرم عليكم من الأجنبية المحصنات، وهن المتزوجات إلا ما ملكت أيمانكم، يعني إلا ما ملكتموهن بالسبي، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن. ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي هذا التحريم

كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه. ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أي ما عدا من ذكركم من المحارم من لكم حلال. ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ أي أن تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع، أو السرايري ما شتمم بالطريق الشرعي. ﴿فَمَا اسْتَتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك. وقد استدلل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام ثم نسخ بعد ذلك. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه، أو عن شيء منه فلا جناح عليك، ولا عليها في ذلك.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَتَيْكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَنْتَ بِنَحْوِهَا فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ مِمَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصِيرُوا خَيْرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٥).

﴿طَوْلاً﴾ سعة وقدرة. ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات. ﴿فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَتَيْكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها. وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور. ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فدل على أن السيد ولي أمته، لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولي عبده لا يتزوج إلا بإذنه. ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي وادفعوا مهورهن بالمعروف أي عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات. وقوله ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ أي عفائف عن الزنا لا يتعاطينه. ﴿غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ﴾ هن الزواني المعلنات اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بفاحشة ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ ذات الخليل الواحد المقرة به. نهي الله عن ذلك، يعني تزويجها ما دامت كذلك. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَنْتَ بِنَحْوِهَا...﴾ والمراد بالاحصان هنا الإسلام، أو زواجهن. ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أي إنما يباح الإماء لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعنت بسبب ذلك، وكان زواجه من أمة مؤمنة أدى إليها مهرها.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً مِنْ قِبَلِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٦).

يخبر الله تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وما حرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً مِنْ قِبَلِهِ﴾ يعني طرائقهم الحميدة، واتباع شرائعهم

التي يحبها ويرضاها. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي من الاثم والمحارم. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي في شرعه وقدره وأقواله وأفعاله.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧).

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ...﴾ أي يريد اتباع الشيطان من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ (٢٨).

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيهِ وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروط. ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه، وضعف عزمه وهمته. وقيل: في أمر النساء، فيذهب عقله عندهن.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ (٢٩).

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بالباطل، أي بأنواع المكاسب التي هي غير مشروعة، كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا. ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾ أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال. ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول، لأنه يدل على التراضي نصاً، بخلاف المعاطاة، فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد منه، وخالف الجمهور في ذلك: مالك؛ وأبو حنيفة وأحمد، فأروا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً، فصحوا بيع المعاطاة مطلقاً، ومنهم من قال: يصح في المحقرات. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه، وأكل أموالكم بينكم بالباطل. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه. وفي الحديث «كان رجل ممن كان قبلكم، وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده، فما رقا الدم حتى مات، قال الله عز وجل: (عبدى بادرني بنفسه، حرمت عليه الجنة) ولذلك قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (٣٠).

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه، أي عالماً بتحريمه، متجاسراً على انتهاكه ﴿فَسَوْفَ نُضَلِّيهِ نَارًا﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، فليحذر منه كل عامل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد.

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣١﴾ .

أي إذا اجتنبتكم كبائر الإثم التي نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب، وأدخلناكم الجنة. ولهذا قال: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وفي الحديث: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». وقد روى ابن كثير أحاديث ذكرت كبائر غير هذه السبع، فمنها الانقلاب إلى الأعراب بعد الهجرة، وعقوق الوالدين، واستحلال البيت الحرام، وإلحاد في المسجد الحرام، والذي يستسخر، وبكاء الوالدين من العقوق، وقول الزور، وشهادة الزور، وقتل ولدك خشية أن يطعم معك، وأن تزاني حليمة جارك، وسأله عن الخمر فقال: هي أكبر الكبائر، وأم الفواحش، من شرب الخمر ترك الصلاة، ووقع على أمه وخالته وعمته، واليمين الغموس، ومن الكبائر أن يشتم الرجل والديه، قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، ويسب أمه، ويسب أمه، ومن أكبر الكبائر عرض الرجل المسلم، والسبتان بالسبة، ومن جمع بين صلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من أبواب الكبائر، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية. وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة»، ومن الكبائر اليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله، وهذا أكبر الكبائر، وسوء الظن بالله، والسرقه، والإضرار في الوصية من الكبائر، والغلول، والذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿٣٢﴾ .

قالت أم سلمة: يا رسول الله، يغزو الرجل، ولا تغزو، ولنا نصف الميراث فأنزل الله هذه الآية. وقوله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ...﴾ أي كل له جزء عمله بحسبه إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أي ولكن سلوني من فضلي أعظكم، فإني كريم وهاب. وفي الحديث: «سألو الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادات انتظار الفرج». ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَمَاتُواهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿مَوَالِيٍّ﴾ ورثة. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ...﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للإخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم. فلما نزلت ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيٍّ﴾ نسخت ثم قال ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَمَاتُواهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له. وكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول: ترثني وأرثك، وكان الأحياء يتحالفون فقال رسول الله ﷺ: «كل حلف في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة. ولا عقد ولا حلف في الإسلام» فنسختها هذه الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 75].

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْفَلِحَتْ قَتِينَتْ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَكِينًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ .

أي الرجل قيم على المرأة، أي وهو رئيسها وكبيرها، والحاكم عليها، ومؤدبها إذا اعوجت. وقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله عليه الصلاة والسلام: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي من المهور والنفقات والعكف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ. ﴿قَتِينَتْ﴾ مطيعات لأزواجهن. ﴿حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ﴾ أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله وقوله ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي المحفوظ من حفظ الله، وفي الحديث «إذا صلت المرأة خمسة، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت». ﴿وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أي والنساء اللاتي تخافون أن ينشزن على أزواجهن، والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها التاركة لأمره المعرضة عنه المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والافضال وقد قال رسول الله ﷺ: «لو كنت امرأة أحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها» وفي الحديث الصحيح: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح» وهجرها في المضاجع: هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها، ويوليها ظهره، ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها، وفي الحديث: قيل: يا رسول الله، ما حق امرأة أحدنا علينا؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا في البيت».

﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ أي إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح. وفي الحديث: «واقفوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». «ضرباً غير مبرح» هو أن لا يكسر فيها عضواً، ولا يؤثر فيها شيئاً. ﴿فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيماً حَبِيراً﴾.

قال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتها بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة، وثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظر في أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق، وتشوف الشارع إلى التوفيق ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ ولم يذكر التفريق.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

يأمر الله تعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرزاق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ثم قال: «أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم». ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القربات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة». ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم. ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم المحاوريج الذين لا يجدون من يقوم بكفالتهم. ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الذي بينك وبينه قرابة. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة، أو هو الرفيق في السفر. وفي الحديث «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ هذا وصية بالأرقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة، أسير في أيدي

الناس. ﴿مُخْتَالًا﴾ أي مختالاً في نفسه معجباً متكبراً. ﴿فَخَوْرًا﴾ على الناس، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير وعند الله حقير، وعند الناس بغيض.

﴿الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٢٧).

في الحديث: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا». ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالبخيل جحود لنعم الله، ولا تظهر عليه، ولا تبين لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها فهو كافر لنعمة الله، وفي الحديث «إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه».

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٢٨).

﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم، ولا يريدون بذلك وجه الله.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٢٩).

أي وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص؟ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي هو عالم بنياتهم الصالحة والفاصلة وعالم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه وبمن يستحق الخذلان والطرده فيخذله ويطرده. أعادنا الله من ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٣٠).

يقول تعالى مخبراً أنه لا يظلم أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل، ولا مثقال ذرة، بل يوفيهما له، ويضاعفها له، إن كانت حسنة كما قال سبحانه: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَنتَسَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا﴾ (٣١) [الانباء: 47] وكما قال: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِنْ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: 16] وفي الصحيحين في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «فيقول الله عز وجل: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فأخرجه من النار، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا﴾ في الحديث: «إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألفي حسنة، فأما المشرك فيخفف عنه العذاب بالحسنة يوم القيامة، ولا يخرج من النار أبداً، وقد استدلل له بالحديث الصحيح أن العباس قال: يا رسول الله إن

عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك، فهل نفعته بشيء؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار بدليل الحديث: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويجزي بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة. ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة. نسأل الله رضاه والجنة.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة، وشدة أمره وشأنه، فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد يعني الأنبياء ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: 69] وفي البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ» فقلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ «قال: نعم، إني أحب أن أسمع من غيري» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا...﴾ فقال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ

حَدِيثًا﴾ .

أي لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ كقوله ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: 40] وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتُمون منه حديثاً.

﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا

عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ .

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مكث، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر. وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران: أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة، وعدم تدبره وخشوعه فيها. وقوله: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ أي لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل. أي تمر به مرأً ولا تجلس. وقوله ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم، إن عدم الماء، أو

لم يقدر على استعماله، وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد، لحديث عطاء بن يسار قال: رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم معجبون إذا توضأوا وضوء الصلاة. وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أما المرض المبيح للتميم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء. والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير. والغائط هو المكان المظلم من الأرض، كني بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر. وملامسة النساء كناية عن الجماع، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمْوهنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: 237] وقال آخرون عنى الله تعالى بذلك كل من لمس بيد أو غيرها من أعضاء الإنسان. والتميم في اللغة هو القصد. والصعيد هو كل ما صعد على وجه الأرض فيدخل في التراب والرمل والشجر والحجر والنبات، وهو قول مالك، وقيل: ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهو مذهب أبي حنيفة، وقيل: هو التراب فقط وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل. ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ فيه التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾ أي ومن عفوه وغفرانه أن شرع لكم التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء توسعة ورحمة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ .

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ: ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا. ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون، وتركون ما أتم عليه من الهدى والعلم النافع.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أي هو أعلم بهم ويحذرهم منهم. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ..﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه، ونصيراً لمن استنصره.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَمَنْهُمْ اللَّهُ يَكْفِرُهمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ في هذا لبيان الجنس، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْتَبِئُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: 30] وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصداً منهم وافتراء. ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا ما قلته يا محمد، ولا نطيعك

فيه، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم من ذلك من الإثم والعقوبة. ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أي اسمع ما تقول، لا سمعت، أو اسمع غير مقبول منك، والأول أصح، وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله. ﴿وَرَدَعْنَا لَأْمًا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ أي يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: راعنا، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي ﷺ. ﴿وَلَكِنَّ لَعْنَتَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرِهِمْ﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم. ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ والمقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهَهَا فَتَرُدَّهَا عَلَيَّ أَذْبَارَهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَعْصَبَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (٤٧).

يقول تعالى أمراً أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات، ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ وُجُوهَهَا فَتَرُدَّهَا عَلَيَّ أَذْبَارَهَا﴾ وطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبصارهم من ورائهم، أو لا بقى لها سمعاً ولا بصرأً ولا أفقأً، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار، أو نجعل وجوههم من قبل أفتيتهم فيمشون القهقري، ونجعل لأحدهم عيين من قفاه. وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة. يهرعون ويمشون القهقري على أذارهم. ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَعْصَبَ السَّبْتِ﴾ يعني الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطباد، وقد مسخوا قردة وخنازير. ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف، ولا يمانع.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (٤٨).

ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به، أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ويغفر ما دون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء أي من عباده. وفي الحديث قال: «إن الله يقول: يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافر ما كان منك، يا عبدي، إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة». وفي الحديث «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [الرعد: 13]. وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله أي الذنوب أعظم قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك...» وفيه «ألا أخرجكم بأكبر الكبائر؟ الإشراف بالله».

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بِلِ اللَّهِ مِرْكًا مِنْ يَشَاءُ وَلَا يُظَلِّمُونَ فِتْيلاً﴾ (٤٩).

نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 18] وفي قولهم ﴿لَنْ يَدْخُلَ

الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى ﴿البقرة: 111﴾ ﴿بَلِ اللَّهُ يُرِيكُم مِّنَ بَشَرِهِ﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل، لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها. ﴿وَلَا يَطْلُمُونَ قَتِيلًا﴾. أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار القتل، وهو ما يكون في شق النواة.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبُ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥١﴾﴾ .

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَيْبُ﴾ أي في تزكيتهم أنفسهم، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًى﴾ [البقرة: 111] وقولهم ﴿لَنْ نَمَسَّكَ النَّارُ إِلَّا أَنْتَا مَمْدُودَةٌ﴾ [آل عمران: 24] واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله ﴿وَلِكُ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: 141]. ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهراً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكُتُبِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّولَاءَ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ .

الجبت: السحر، والطاغوت الشيطان. أو الجبت الشيطان أو الشرك، أو الأصنام، أو حيي بن أخطب، أو كعب بن الأشرف، أو هي كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، والطاغوت: كل ما يعبد من دونه عز وجل ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم. وقد جاء حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكدباء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني، ونسقي الحجيج، ومحمد صنبر، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله هذه الآية.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ .

وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم، وجاؤوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: 25].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ .

وهذا استفهام إنكاري، أي ليس لهم نصيب من الملك، ثم وصفهم بالبخل فقال: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أي لأنهم لو كان لهم نصيب من الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس، ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً، ولا ما يملأ النقيير، وهو النقطة التي في النواة. وهذه الآية كقوله تعالى ﴿قُلْ لَوْ

أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴿١٠٠﴾ [الإسراء: 100] أي خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: 100] أي بخيلاً.

﴿أَمَّا يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ .

يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، وقد منعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب، وليس من بني إسرائيل. وقوله: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ . . .﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة، وأنزلنا عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة، وجعلنا منهم الملوك، ومع هذا.

﴿فَيَنْهَاهُمْ مِّنْ ءَامَنَ بِهِ وَيَمُنُّ مِّنْ صَدِّعَهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ .

﴿فَيَنْهَاهُمْ مِّنْ ءَامَنَ﴾ أي بهذا الإيتاء، وهذا الإنعام ﴿وَيَمُنُّ مِّنْ صَدِّعَهُ﴾ أي كفر به وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم، أي من بني إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد، ولست من بني إسرائيل؟ ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمَآ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَزِيرًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ .

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا﴾ أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بجميع أجزائهم وأجزاءهم. ﴿كَلَّمَآ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ . . .﴾ إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها أيضاً أمثال القراطيس.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ .

هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شأوا، وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون، ولا يبعثون عنها حولاً. وقوله ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة والصفات الناقصة. ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي ظللاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً، في الحديث «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها - شجرة الخلد».

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٥٨)

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي الحديث «أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك» وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده، من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما ياتمون به من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة. وفي الحديث: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء». لما نزل رسول الله ﷺ بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرهما بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة، وقد استكن له الناس في المسجد، فقام ﷺ على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداثة البيت وسقاية الحاج» إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب، ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر» فهذه الآية نزلت في عثمان بن طلحة، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ . . . ﴾ فدعا عثمان بن طلحة إليه فدفع المفتاح إليه. وقوله: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ . . . ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، ولهذا قيل: إنما نزلت في الأمراء، يعني الحكام بين الناس. وفي الحديث «إن الله مع الحاكم ما لم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه». وفي الأثر: عدل يوم كعبادة أربعين سنة. وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أي سميعاً لأقوالكم، بصيراً بأفعالكم.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٥٩)

بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها، قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها

فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم، منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف» أخرجاه في الصحيحين. ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ هم أهل الفقه والدين، والظاهر - والله أعلم - أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء. ﴿فَإِن نَنزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة. ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 10] أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم. ﴿إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ دل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى كتاب الله والسنة فليس مؤمناً بالله واليوم الآخر. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلاً. أو وأحسن جزاء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلْنَا مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [10]. هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في رجل من الأنصار منافق ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد، وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف، وهو المراد بالطاغوت هنا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُورًا﴾ [11].

﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُورًا﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَحَدَّثَنَا عَلَيْهِ ءَابَاءُنَا﴾ [الرعد: 21] وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: 51].

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [12].

أي فكيف إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ...﴾ أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمتنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة والمصانعة، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ

اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْبِيرًا ﴿٥٢﴾ [المائدة: 52].

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٣﴾﴾ .

هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله يعلم ما في قلوبهم، وسيجزئهم على ذلك، فإنه لا تخفى عليه خافية، فاكتف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم، ولهذا قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم. ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي وانهم عما في قلوبهم من النفاق، وسرائر الشر. ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ ادع لهم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهَمُ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم. وقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي لا يطيع أحد إلا بإذني، يعني لا يطيعه إلا من وفقته لذلك. كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: 152] أي عن أمره وقدره، ومشيتته وتسليطه إليكم عليهم. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنْهَمُ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنْهَمُ إِذْ ظَلَمُوا...﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبير أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: «يا عتبي الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له».

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ .

يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أن لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد إليه ظاهراً وباطناً. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا...﴾ أي إذا حكموك بطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به،

وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة. وورد في الحديث «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴿٦٦﴾﴾ .

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه، لأن طباعهم مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن، أو كان، فكيف كان يكون؟ وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآية قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي». وفي الحديث: «لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم» وفيه أيضاً أن رسول الله تلا هذه الآية وأشار بيده إلى عبد الله بن رواحة وقال: «لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل» يعني ابن رواحة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي. ﴿وَأَشَدَّ تَنبِيئًا﴾ أي وأشد تصديقاً.

﴿وَإِذَا لَاتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ .

﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ أي من عندنا. ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة.

﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ .

﴿وَلَهَدَيْنَهُمْ...﴾ أي في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ .

أي من عمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم. ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ وفي البخاري عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة» وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعتة يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» فعلمت أنه خير. وهذا معنى قوله في الحديث الآخر «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثاً ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم. وقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال له النبي ﷺ: «يا فلان مالي أراك محزوناً؟» فقال: يا نبي الله، شيء فكرت فيه، فقال: ما هو؟ قال: نحن نغدو عليك

ونروح، ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين، فلا نصل إليك، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً فأتاه جبريل بهذه الآية ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ فبعث النبي ﷺ فبشره. وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ، فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «سل» فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذلك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من عند الله برحمته، وهو الذي أهلهم لذلك، لا بأعمالهم. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله. ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، والثبات جمع ثبة، وقد تجمع الثبة على ثبين. ﴿أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ يعني كلكم.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنِ لَّيْطِيئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ

شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ .

﴿لَّيْطِيئَنَّ﴾ أي ليتخلفن عن الجهاد، ويحتمل أن يكون المراد يتباطأ هو في نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أبي ابن سلول قبحه الله يفعل، يتأخر عن الجهاد، ويثبط الناس عن الخروج فيه. ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ﴾ أي قتل وشهادة وغلب العدو لكم لما في ذلك من الحكمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا...﴾ أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل.

﴿وَلَيْنَ أَصَابَتْكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ

فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ .

﴿وَلَيْنَ أَصَابَتْكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي نصر وظفر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أي كأنه ليس من أهل دينكم. ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ...﴾ أي بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه، وهو أكبر قصده وغاية مراده.

﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ .

﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أي المؤمن النافر. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ...﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل

من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ أي كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب فله عند الله مثوبة عظيمة، وأجر جزيل، كما ثبت في الصحيحين «وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة».

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ .
 يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء، والصبيان المتبرمين من المقام بها، ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ يعني مكة، كقوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرَبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ [عمد: 13]. ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا...﴾ أي سخر لنا من عندك ولياً وناصرأ. في البخاري عن ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَاقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ .
 أي لمؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان، ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ...﴾ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَى الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ .
 كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء فيهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفر عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام، وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء، فلماذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار منعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإنه فيه سفك الدماء، ويتم الأولاد، وتأييم النساء، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [عمد: 20] عن ابن عباس أن

عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة، قال: «إني أمرت بالعمو، فلا تقاتلوا القوم» فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الدِّينِ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ وقال أسباط عن السدي: لمن يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال فلما فرض عليهم القتال ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَحْتَرُونَ النَّاسَ كَحَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ حَشْيَةً...﴾. وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ﴾ هو الموت. ﴿وَلَا تُظَلِّمُونَ قَيْلًا﴾ أي من أعمالكم، بل توفونها أتم الجزاء، وهذا تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد. قرأ الحسن ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فقال: رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك. وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْتُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْتُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَن عِنْدَ اللَّهِ فَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٧٨).

أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْنَا فَإِنِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ مِنَ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدُ﴾ [الأنبياء: 34] والمقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، سواء جاهد، أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، ومقاماً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وما أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء. وقوله ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة، وقيل: هي بروج في السماء، وهو ضعيف، والصحيح أنها المنيعة أي لا يغني حذر ولا تحصن من الموت. وقوله ﴿وَإِنْ تُصِبْتُمْ حَسَنَةٌ﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزرع وأولاد ونحو ذلك ﴿وَإِنْ تُصِبْتُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي قحط وجذب ونقص في الثمار والزرع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي من قبلك، وبسبب اتباعنا لك، واقتدائنا بدينك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ نَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْتُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: 131] وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ. فأنزل الله ﴿قُلْ كُلُّ مَن عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ في البر والفاجر، والمؤمن والكافر. ثم قال تعالى منكرأ على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم، وكثر جهل وظلم ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ .

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته . ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ أي فمن قبلك، ومن عملك أنت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَمِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: 30] وفي الحديث «لا يصيب الرجل خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر» وهذا حديث أرسله قتادة، وقد روي متصلاً في الصحيح «والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها» ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أي تبلغهم شرائع الله، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي على أنه أرسلك، وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه، وبما يردون عليك من الحق كفوراً وعناداً.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو وحي يوحى، وفي الحديث «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني» وهذا الحديث ثابت في الصحيحين. ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي ما عليك منه؟ إن عليك إلا البلاغ، فمن اتبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء. وفي الحديث «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصي الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه».

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَّرُوا مِنَ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿فَإِذَا بَرَّرُوا مِنَ عِنْدِكَ﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد. والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزئهم على ذلك. ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ أي اصفح عنهم، واحلم عليهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم أيضاً. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي كفى به ولياً وناصرًا ومعيناً لمن توكل عليه وأتاب إليه.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢).

يقول تعالى أمراً لهم بتدبر القرآن، وناهياً لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة، وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تعارض، لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي لو كان مفتعلاً مختلفاً كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافاً أي اضطراباً وتضاداً كثيراً، أي وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْطِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٣).

هذا إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة، وفي الحديث «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» وفيه «نهى رسول الله ﷺ عن قيل وقال» أي الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين، وفيه أيضاً «بئس مطية الرجل زعموا» وفيه «من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين». وقوله ﴿يَسْتَنْطِطُونَهُ﴾ يستخرجونه من معادنه، يقال: استنطبت الرجل العين إذا حفرتها أو استخرجها من قعرها. وقوله ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ عن ابن عباس يعني المؤمنين. وعن قتادة يعني كلكم.

﴿فَقَدِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (٨٤).

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه، ومن نكل عنه فلا عليه منه، ولهذا قال ﴿لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ وقوله: ﴿وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في الحديث قال لأصحابه: «قد أمرني ربي بالقتال فقاتلوا» حديث غريب أي حرضهم على القتال، ورغبهم فيه، وشجعهم عليه، كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً ووجبت له الجنة» قال: فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعتها علي يا رسول الله، ففعل، ثم قال رسول الله ﷺ «وأخرى يرفع الله العبد بها مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله» رواه مسلم. وقوله ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث همهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ

تَنْكِيلًا ﴿ أَيُّهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ لَوْ أَنشَاءَ اللَّهُ لَأَنْصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيُنَازِلُوا بِمَعْصِكُمْ بَعْضٌ ﴾ [عمد: 4].

﴿ مَنْ يَشْفَعُ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا ﴾ ﴿٨٥﴾ .

أي من يسعى في أمر فيرتب عليه خير كان له نصيب من ذلك، ومن يسعى في شر يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء» ﴿مُقِينًا﴾ أي حفيظًا، أو شهيدًا، أو حسيبًا، أو المقيت المواظب، أو الرزاق.

﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحْوِهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ ﴿٨٦﴾ .

أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته»، ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال له: «وعليك» فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، أتك فلان وفلان فسلمنا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عليّ، فقال: «إنك لم تدع لنا شيئاً» قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحْوِهِ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ رواه ابن جرير. وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ. وأهل الذمة لا يُدوون بالسلام، ولا يزدون، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السلام عليكم، فقل: وعليك. وفي صحيح مسلم «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقة» وفي الحديث «والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا، حتى تحابوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

حَدِيثًا ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ هذا إخبار بتوحيده، وتفرد به بالإلهية لجميع المخلوقات، وقوله ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمٍ...﴾ هذا قسم منه تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله. ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعدته ووعدته، فلا إله غيره ولا رب سواه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٨٨).

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين فقد خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة تقول: نقلتهم، وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون، فأنزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكبر خبث الحديد» أخرجاه في الصحيحين. وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾ أي ردهم وأوقعهم في الخطأ. ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل. ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي لا طريق إلى الهدى، ولا مخلص له إليه.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٨٩).

أي هم يودون لكم الضلالة لتستوا وأنتم وإياهم فيها، وما ذلك إلا لشدة عداوتهم، وبغضهم لكم. ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي تركوا الهجرة، أو أظهروا كفرهم. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي لا توالوهم، ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ وَكُمُ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمَّ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٩٠).

ثم استثنى الله من هؤلاء، فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة، أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم. وعن الحسن أن سراقه بن مالك المدلجي حدثهم قال: لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأحد أسلم من حولهم قال سراقه: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج فأتيته فقلت: أنشدك النعمة، فقالوا: صه، فقال النبي ﷺ: «دعوه، ما تريد؟» قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا لم تحش قلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال: «أذهب معه فافعل ما يريد» فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فأنزل الله ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً...﴾ وأنزل الله ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم. وقوله ﴿أَوْ جَاءَكُمْ وَكُمُ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ...﴾ هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف، وهم حصرة صدورهم، أي ضيقة

صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم، لا لكم، ولا عليكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم. ﴿وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ﴾ أي المسالمة. ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهما ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس، وأمر بأمره.

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعَزَلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (٩١).

هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون، يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك. ﴿أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي انهمكوا فيها، والفتنة ههنا الشرك. وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يتبعون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا، ولهذا قال تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ يَعَزَلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ﴾ المهادنة والصلح ﴿وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي عن القتال ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ أسراء ﴿وَأَقْبَلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي أين لقيتموهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي بيناً واضحاً.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِيهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (٩٢).

يقول تعالى: ليس للمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والشيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة». ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه. ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا...﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأ، ومن شرط الكفارة أن تكون عتق رقبة مؤمنة، فلا تجزئ الكفارة. والثاني الدية فيما بين القاتل

وأهل القتل عوضاً لهم عما فاتهم من قتلهم، وعن ابن مسعود قال: قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ: عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكوراً، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذعة، وعشرين حقة» وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» وبعث علياً فودى قتلهم وما أتلف من أموالهم حتى مبلغة الكلب. وهذا الحديث يؤخذ فيه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب. وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً﴾ أي إذا كان القتل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير. وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ...﴾ أي فإن كان القتل أولياؤه أهل ذمة فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء، وقيل: يجب في الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة. ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي لا إفتار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا؟ على قولين. وقوله ﴿تَوْبَةَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ، أي إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين، واختلفوا في من لا يستطيع الصيام هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهر على قولين، أحدهما نعم كما هو منصوص عليه في كفارة الظهر، وإنما لم يذكر ههنا لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام لما فيه من التسهيل والترخيص، والقول الثاني لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجباً لما أصر بيانه عن وقت الحاجة.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (٩٣).

وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله عز وجل حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: 68] والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الریاء» وفي الحديث أيضاً «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم»، وكان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً لهذه الآية وقال: هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء، ولكن الذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأناب،

وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، وعض المقتول عن ظلامته، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٧٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٧٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٨٠﴾﴾ [الفرقان: 68 - 70] وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48] فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك. ثم لقائل العمدة أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، فأما في الدنيا فتسليط أولياء المقتول عليه قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: 33] ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً: ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفة. أقول: وأما في الآخرة فهو آثم ويعاقب على جريمته بقدرها، ولا يخلد على الراجح، ويمكن أن يتجاوز الله عنه بلا عقاب.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَسَّرُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَتَجَبَّنَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له سلم عليهم، فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية. وقوله: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: عرض الدنيا تلك الغنمة. وقوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حمكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام، وأظهر لكم الإيمان، فتغافلتم عنه، واهتمتموه بالصناعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا. وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسر إيمانه ويخفيه من قومه كما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ تُخَافُونَ أَنْ يُخَطِّفَكُمُ النَّاسُ فَنَاسِكُمْ وَآيُودِكُمْ بَصَرُهُمْ وَرَزَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26] أي كنتم من قبل تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه. وقوله: ﴿فَتَجَبَّنَا﴾ تأكيد لما تقدم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال سعيد بن جبيرة: هذا تهديد ووعد.

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾.

عن يد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ

فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملئها عليّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ، وكان فخذة على فخذتي فنقلت علي حتى خفت أن ترض فخذتي ثم سري عنه فأنزل الله ﴿عَبْرُ أُولَى الْأَصْرَارِ﴾ فصار ذلك مخرجاً لذوي الأعدار الميحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرضى عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. وفي حديث البخاري عن أنس «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه، قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: نعم، حبسهم العذر» وقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل، وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية.

﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (٩٦).

ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات في غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات، إحساناً منه وتكريماً، ولهذا قال: ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعداها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من رمى بسهم فله درجة» فقال رجل: يا رسول الله؟ وما الدرجة؟ فقال: «أما أنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مائة عام».

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الظَّالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاوَأْتُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧).

نزلت هذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين، وهو قادر على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراماً بالإجماع، وينص هذه الآية ﴿ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ﴾ بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ في الحديث «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» وقال السدي: لما أسر العباس وعقيل ونوفل. قال رسول الله ﷺ: «أفد نفسك وابن أخيك» فقال: يا رسول الله ألم نصل إلى قبلك، ونشهد شهادتك؟ قال: «يا عباس، إنكم خاصمتهم فخصمتهم» ثم تلا هذه الآية ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ (٩٨).

هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً.

﴿فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ .

﴿أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجبة. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رفع يديه بعدما سلم وهو مستقبل القبلة فقال: «اللهم خلص الوليد بن الوليد، وعياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدي الكفار» .

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ .

في هذه الآية تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حينما ذهب وجد عنهم مندوحة، وملجأ يتحصن فيه. ﴿مُرْعَمًا﴾ مصدر، وهو التحول من أرض إلى أرض، والظاهر والله أعلم أنه المنع الذي يتخلص به ويراعم به الأعداء. ﴿وَسَعَةً﴾ يعني الرزق. قال قتادة: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى. وقوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا...﴾ أي ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت في الصحيحين «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كنت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتروجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». وهذا عام في الهجرة، وفي جميع الأعمال. خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ .

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَلْكُفِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١١١﴾﴾ .

﴿ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي سافرتم في البلاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ بِضُرْبٍ فِي الْأَرْضِ يَلْبَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الزمل: 20] وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي تخففوا من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية، وهل يشترط أن يكون السفر سفر طاعة من جهاد، أو حج، أو عمرة، أو طلب علم، أو زيارة، أو غير ذلك، أم لا يشترط أن يكون سفر قرابة، بل لا بد أن يكون مباحاً بشرط أن لا يكون عاصياً بسفره، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة. وقال بعضهم يكفي مطلق السفر سواء كان مباحاً أو محظوراً حتى لو خرج لقطع الطريق، وإخافة السبيل، وهذا قول أبي حنيفة. وأما قوله تعالى ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول الآية، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سرية خاصة، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله،

والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَىٰ الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْنَ خَفْصًا﴾ [النور: 33] وكقوله تعالى: ﴿وَرَبِّبْنِيكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ أَلَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: 23] عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب، قلت له: قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد أمن الناس، فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته».

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَىٰ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخَذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١١٦﴾﴾ .

عن سالم عن أبيه قال ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى، ثم سلم بها، ثم قامت طائفة منهم فصلت ركعة ركعة. وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم، ولهذا الحديث طرق كثيرة عن الجماعة من الصحابة. وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا ﴿١١٣﴾﴾ .

يأمر تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها، ولكن ههنا أكد، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَطْلُبُوا فِيهَا أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: 36] وإن كان هذا منهيّاً عنه في غيرها، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمتها. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي فإذا أمتم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي فأتّموها وأقيموها كما أمرتم بحدودها وخشوعها وسجودها وجميع شؤونها. ﴿كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ أي مفروضاً. قال ابن مسعود: إن للصلاة وقتاً كوقت الحج.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ .

أي لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم، وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد. ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ أي كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَجْرٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَجْرٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: 140] ثم قال تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، وهو وعد حق، وخبر صدق، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة فيه، وفي إقامة كلمة الله وإعلانها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه، وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ (١٥) وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٧﴾ .

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي هو الحق من الله، وهو يتضمن الحق في خيره وطلبه. وقوله ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ احتج من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد، وبما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أقضي بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليحملها أو ليذرها». وقد روى ابن مردويه عن ابن عباس أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته فسرت درع لأحدهم فأظن بها رجل من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن طمعة بن أبيرق سرق درعي، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده، فانطلقوا إلى النبي ﷺ ليلاً، فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء، وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس فأنزل الله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ . . .﴾ .

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (١٨) هَاتِنْتُمْ هَتُولَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ (١٩) .

ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ . . .﴾ يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١١٥).

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان، وأخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال، قال عبد الله: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض، فقال رجل: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً، فقال عبد الله رضي الله عنه: ما آتاكم الله خير مما آتاهم، جعل الماء لكم طهوراً. وقال علي بن أبي طالب: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعتني الله فيه بما شاء أن ينفعتني منه، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر، قال: قال رسول الله ﷺ «ما من مسلم يذنب ذنباً، ثم يتوضأ، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له» وقرأ هاتين الآيتين ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...﴾ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ وَاللَّهُ وَكَمْ يُبْصِرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: 135).

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١٦).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا...﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: 164) يعني أنه لا يعني أحد عن أحد، وإنما على كل نفس ما عملت، لا يحمل عنها غيرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي من علمه وحكمته وعدله ورحمته كان ذلك.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (١١٧).

يعني اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح، وهو لبيد بن سهل، وقد كان بريئاً، وهم الظلمة الخونة كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا

أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١١٨).

﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه لما أثنوا على بني أبيرق، ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاها لرسول الله ﷺ. ثم امتن الله عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه من الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهي السنة. ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أي قبل نزول ذلك عليك كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا

كُنْتُ نَدْرِي مَا أَلِكْتُبُ وَلَا أَلِيئُنْتُ ﴿[الشورى: 52] وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُ تَرْجُو أَنَّ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي رَبِّكَ﴾ [القصص: 86] ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٤﴾.

﴿مِن نَّجْوَاهُمْ﴾ يعني كلام الناس. ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ...﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك. دخل سعيد بن حسان على سفيان الثوري فحدثه أن رسول الله ﷺ قال: «كلام ابن آدم كله عليه، لا له إلا ذكر الله عز وجل، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر» فقال سفيان: أو ما سمعت الله في كتابه يقول: ﴿لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فهو هذا بعينه؟ أو ما سمعت الله يقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِي الرُّوحُ وَالْمَلَكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَىٰ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿[النبا: 38] فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول في كتابه: ﴿وَالْقَصْرَ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: 1-3] فهو هذا بعينه. وعن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً، أو يقول خيراً»، وقالت: لم أسمع به يرضخ في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها، وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ. وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم أفضل من درجة الصائم، والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إصلاح ذات البين» قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة». وعن أنس أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب: «ألا أدلك على تجارة؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «وتسعى في إصلاح بين الناس إذا تفسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا» ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي ثواباً جزيلاً واسعاً.

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ، جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿١٥﴾.

أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق، وتبين له واتضح له. وقوله: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصبغة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقياً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشرافاً لهم وتعظيماً لنبيتهم، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كونه الإجماع حجة تحرم مخالفته، هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها.

ولهذا توعد الله على ذلك بقوله: ﴿تَوَلَّوْا مَا تَوَلَّوْا وَتُضَلِّهِمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره، ونزينها له استدراجاً له، كما قال تعالى ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبُ يَدَا لُدَيْتٍ سَتَسْتَرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ﴾ [القلم: 44] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5] وجعل النار مصيره في الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا النار يوم القيامة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [١١٦].

عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق، وضل عن الهدى، وبعد الصواب، وأهلك نفسه، وخسرهما في الدنيا والآخرة، وفاته سعادة الدنيا والآخرة.

﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [١١٧].

﴿إِلَّا إِنشَاءً﴾ عن أبي بن كعب قال: مع كل صنم جنية وعن عائشة قالت: أوثاناً. وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية: قال المشركون للملائكة: بنات الله، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، قال: فاتخذوهن أرباباً وصور وهن جوارى فحكموا وقلدوا: وقالوا: هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبد، يعنون الملائكة. قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: 158]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك، وحسنه وزينه لهم، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر، كما قال تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْنِي وَبَيْنَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: 60] وقال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: 41].

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [١١٨].

﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره. ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي معيناً مقدراً معلوماً.

﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَيَّنَتْهُمْ وَلَا مَرَنَتْهُمْ فَلَئِنَّكَ أَنْتَ الْغَافِلُونَ﴾ [١١٩].

﴿وَلَا ضَلَّتْهُمْ﴾ أي عن الطريق. ﴿وَلَا مَيَّنَتْهُمْ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة، وأعدمهم الأمانى، وأمهممهم بالتسوية والتأخير، وأغرمهم من أنفسهم. ﴿وَلَا مَرَنَتْهُمْ فَلَئِنَّكَ أَنْتَ الْغَافِلُونَ﴾ يعني تشقيها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة. ﴿وَلَا مَرَنَتْهُمْ فَلَئِنَّكَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك خص الدواب. وقال الحسن البصري: يعني بذلك الوشم. وفي صحيح مسلم النهي

عن الوشم في الوجه، وفي لفظ «لعن الله من فعل ذلك» وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل ثم قال ابن مسعود: ألا لعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله عز وجل؟ يعني قول الله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7] وقال ابن عباس في رواية عنه في قوله ﴿وَلَا تُرِيحُهُمْ فَلَئِمَّتِ رِجَّتُكَ خَلَقَ اللَّهُ﴾ يعني دين الله عز وجل، وهذا كقوله: ﴿فَأَقْهَكَ لِيَلِينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: 30] على قول من جعل ذلك أمراً، أي لا تبدلوا فطرة الله، ودعوا الناس على فطرتهم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تجدون بها من جدعاء؟» وفي صحيح مسلم، قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة، وتلك خسارة لا جبر لها، ولا استدرارك لفاتتها.

﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١٢٠).

وهذا إخبار عن الواقع، فإن الشيطان يعد أوليائه ويمنيهم بأنهم الفائزون في الدنيا والآخرة، وقد كذب وافترى في ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَرَدُّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِي إني كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُم مِّن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22].

﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ (١٢١).

﴿مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ﴾ أي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ولا خلاص ولا مناص.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (١٢٢).

ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي بلا زوال ولا انتقال. ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي هذا وعد من الله، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله:

﴿حَقًّا﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته: «إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١١٣).

قال قتادة: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابتنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، ونبينا خاتم النبيين، وكتابتنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ ثم أفلح الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان. والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وفر في القلوب، وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له دعواه، ولا كل من قال: إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان، أي ليس لكم ولا لأهل الكتاب النجاة بمجرد التمني، بل العبرة بطاعة الله واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام. قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أشد هذه الآية ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء». ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ أي إلا أن يتوب فيتوب الله عليه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا﴾ (١١٤).

هذا بيان إحسانه سبحانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده: ذكرائهم وإناثهم بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة، ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة، والفتيل هو الخيط الذي في شق النواة، والقطيمير هو اللفافة التي على نواة التمرة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا﴾ (١١٥).

﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي أخلص العمل لربه عز وجل إيماناً واحتساباً. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق. وهذان شرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أي أن يكون خالصاً وصواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة، فيصبح ظاهره بالمتابعة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد،

فمن فقد الإخلاص كان منافقاً وهم الذين يراؤون الناس ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ومتى جمعها كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوزوا عن سيئاتهم. ﴿وَأَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وهم محمد وأتباعه يوم القيامة. والحنيف المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليّة، لا يصدّه عنه صاد، ولا يردّه عنه راد. وقوله ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلّة التي هي أرفع مقامات المحبة، وما ذلك إلا لكثرة طاعته لربه كما وصفه الله فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: 37] قال كثير من العلماء السلف: أي قام بجميع ما أمر به، وفي كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير. وإنما سمي سيدنا إبراهيم خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل، لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال: «أما بعد أيها الناس، فلو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله».

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾.

أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه، وهو المتصرف في جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته. وقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك، لا تخفى عليه خافية من عباده ولا يعزب عن علمه مثقل ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَزَعَبْنَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ وَالسُّفْمَيَيْنِ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقُولُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

والسقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله عز وجل، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده، أو في نفس الأمر فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه «في ماله الذي بينه وبينها» كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها تزويجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه. وقال في قوله ﴿وَالسُّفْمَيَيْنِ مِنَ الْوَالِدَانِ﴾: كانوا في

الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله ﴿لَا تُوْثِرُنَّهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ فنهى الله عن ذلك، وبين لكل ذي سهم سهمه فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ مِثْلِ الْأُنثِيَّاتِ﴾ صغيراً كان أو كبيراً. ﴿وَأَنْتُمْ تَقْرَأُونَ لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فأنكحها واستأثر بها. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ تهيباً على فعل الخيرات، وامثالاً للأوامر، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه.

﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٨).

يقول الله تعالى مخبراً ومشرعاً من حال الزوجين: تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال اتفاق معها، وتارة في حال فراق لها، فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها، أو يعرض عنها فلها أن تسقط عنها حقها، أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه، وله أن يقبل ذلك منها، فلا حرج عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أي من الفراق وهذه هي الحالة الثانية. وقوله ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق، عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ...﴾ عن عروة عن عائشة أنها قالت له: يا ابن أخي، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، وكان كل يوم إلا وهو يطوف علينا فيدنو من كل امرأة من غير ميسس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها... . ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ بل الطلاق بغض إليه سبحانه، وفي الحديث «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» وقوله ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا...﴾ أي وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن، وتقسما لهن أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَعْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٢٩).

أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع. وقد كان النبي ﷺ يحب عائشة أكثر من غيرها، وكان يقسم بين نسائه ويعدل ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا

أملك» يعني القلب . وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبُوا كُلَّ الْمَلِئِكَةِ﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي فتبقى هذه الأخرى معلقة، لا ذات زوج ولا مطلقة . وفي الحديث «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهن جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط» . وقوله ﴿وَإِنْ تُصِلِحُوا . . .﴾ أي وإن أصلحتم في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان ميل إلى بعض النساء دون بعض .

﴿وَإِنْ يَنْفَرَا يُعْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ .

وهذه هي الحالة الثالثة، وهي حالة الفراق، وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها، ويغنيها عنه بأن يعوضه الله من هو خير له منها، ويعوضها عنه من هو خير لها منه . ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾ أي واسع الفضل، عظيم المن، حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الحاكم فيهما، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل وعبادته وحده لا شريك له . ثم قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ . . .﴾ كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8] وقال: ﴿فَكْفُرُوا وَقَوْلُوا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: 6] أي غني عن عباده، محمود في جميع ما يقدره ويشرعه .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ .

أي هو قائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شيء .

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً﴾ .

أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه كما قال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: 38] قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: 16، 17] أي وما هو عليه بممتنع .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ .

أي يا من ليس له همة إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثواب الدنيا، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأفناك، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَلْسَايِنَ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لُؤُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

خَلَقَ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾
 أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ [البقرة: 200 - 202] فقله تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ تَوَاقُفُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة أي بيده هذا وهذا، فلا يقتصر قاصد الحق على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو الذي قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة، وعدل بينهم فيما علمه ممن يستحق هذا، وممن يستحق هذا، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا كُوفُؤًا قَوْمِينَ بِالْفِئْتِ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ أَوْ أَوْلَادِي وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿١٣٥﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه. وقوله: ﴿شَهَادَةً لِلَّهِ﴾ كما قال ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الرابعة: 2] أي أذوها ابتغاء وجه الله فحيثما تكون صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف والتبديل والكتمان، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي اشهد الحق، ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرتك عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه. وقوله ﴿أَوْ أَوْلَادِي وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقربانتك، فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق، وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد. وقوله ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، فالله يتولاها بل هو أولى بهما منك، واعلم بما فيه صلاحهما. وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِبَنَّكُمْ سِتْرَانُ قَوْمٍ عَلَيْكَ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8] ومن هذا قول عبد الله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض. وقوله ﴿وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا﴾ أي تحرفوا الشهادة وتغيروها، والتي هو التحريف وتعمد الكذب. والاعراض هو كتمان الشهادة وتركها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: 283] وقال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها» ولهذا توعدهم الله بقوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي وسيجازيكم بذلك.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٢٦﴾ .

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيتته والاستمرار عليه، كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١﴾ [الفاتحة: 6] أي بصرنا فيه، وزدنا هدى وتثبيتاً عليه، فأمرهم بالإيمان بالله وبرسوله، كما قال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَرُوا اللهُ وَآمَنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: 28] وقوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال في القرآن ﴿نَزَّلَ﴾ لأنه نزل مفروقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة، ولهذا قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد عن القصد كل البعد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ ﴿١٢٧﴾ .

يخبر تعالى عن من دخل في الإيمان ثم رجع عنه ثم عاد فيه ثم رجع واستمر على ضلاله، وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً، ولا طريقاً إلى الهدى، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ .

﴿نَبِّئِ الْمُتَنَفِقِينَ يَا نَفْسَ عَدَاةَ الْإِيمَانِ﴾ ﴿١٢٨﴾ .

يعني أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم .

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوتُ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ﴿١٢٩﴾ .

ثم وصف المنافقين بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم، ويسرون إليهم بالموودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم إنما نحن معكم إنما نحن مستهزؤون أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة، قال تعالى منكرأ عليهم فيما سلکوه من موالاته الكافرين ﴿أَيْبَنُوتُ عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ والمقصود من هذا التهيب على طلب العزة من جناب الله، والاقبال على عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: «من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً فهو عاشرهم في النار» .

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٦﴾﴾ .

أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقرتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه، فلهذا قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ أي في المأثم، كما جاء في الحديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر» وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين، لا الزلال.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ يَحْتَمِلُ غَرَارُكُمْ أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَمَّا إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أُمَّةَ اللَّهِ قَلِيلًا يَحْتَمِلُ﴾ .

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم، وظهور الكفرة عليهم، وذهاب ملتهم ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿فَقَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ أي يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان، كما وقع يوم أحد، فإن الرسل تبلى ثم يكون لها العاقبة ﴿قَالُوا أَلَمْ نَسْتَعِذَّ بِكُمْ وَمَنْعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ساعدناكم في الباطن، وما ألواناهم خبالاً ولا تحذيراً حتى انتصرتهم عليهم، قال السدي: ﴿نَسْتَعِذَّ بِكُمْ﴾ نغلب عليكم، كقوله: ﴿أَسْتَعِذُّ بِعَيْبِهِ الشَّيْطَانُ﴾ [المجادلة: 19] وهذا أيضاً تودد منهم إليهم، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء، ليحفظوا عندهم ويأمنوا كيدهم، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم. قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي بعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا، لما له في ذلك من الحكمة فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم، بل هو يوم تبلى فيه السرائر، ويحصل ما في الصدور. وقوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال: كيف هذه الآية؟ ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ فقال علي رضي الله عنه: ادنه ادنه، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً. وقال السدي: ﴿سَبِيلًا﴾ أي حجة. ويحتمل أن يكون المعنى: ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً أي في الدنيا بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غانر: 51] وعلى هذا يكون

رداً على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهرُوا على الإيمان فاستأصلوهم: وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء، وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافر، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والاذلال، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في المال.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٧٦).

لا شك أن الله لا يخادع فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً، فكذلك حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون أنهم كانوا على الاستقامة والسادد ويعتقدون أن ذلك نافع لهم كما قال تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [المجادلة: 18] وقوله: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق، والوصول إليه في الدنيا وكذلك يوم القيامة. وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ﴾ هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها، لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها، ولا خشية ولا يعقلون معناها. عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يتاجي الله، وإن الله تجاهه يغفر له ويحبه إذا دعاه، ثم يتلو هذه الآية ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ . . .﴾ وقوله ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أي لا إخلاص لهم، ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يرون فيها غالباً كصلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيها لأتوهما ولو حبواً. وفي الحديث «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس، وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل». وقوله ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون، ولا يدرون ما يقولون، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون، وعماً يراد بهم من الخير معرضون.

﴿مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لِآ إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (١٧٦).

يعني المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك. في الحديث «مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الغنمين، إن أتت هؤلاء نطحتها، وإن أتت هؤلاء نطحتها».

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ؕ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (١٤٤).

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم. ﴿سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (١٤٥).

الدرك الأسفل: بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم. ﴿وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ أي ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١٤٦).

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب الله عليه، وقبل ندمه إذا أخلص في توبته، وأصلح عمله، واعتصم بربه في جميع أمره، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا...﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قل، وفي الحديث «أخلص دينك يكفك القليل من العمل». ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي في زمرة يوم القيامة. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧).

ثم قال تعال مخبراً عن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ أي أصلحتم العمل وأمتتم بالله ورسوله. ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي من شكر شكر له، ومن آمن من قلبه به علمه وجزاه على ذلك أوفر الجزاء.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨).

عن ابن عباس في الآية يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ وإن صبر فهو خير له، وقال الحسن البصري: لا يدع عليه، وليقل اللهم أعني عليه، واستخرج حقي منه، قال مجاهد: هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج فيقول: أساء ضيافتي ولم يحسن. وعن عقبه بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا فما ترى في ذلك؟ فقال: «إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما يتغى للضيف فاقبلوا منهم، وإن لم تقبلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم» وفي الحديث «أيا مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقري ليلته من زرعه وماله» وعن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: «إن لي جاراً يؤذيني فقال

له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق» فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فكل من مر به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم اللعنة، اللهم اخزه، قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، والله لا أوديك أبداً.

﴿إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفَهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ .

أي إن تظهروا أيها الناس خيراً، أو أخفيتموه، أو عفوتم عن أساء إليكم فإن ذلك مما يقربكم عند الله، ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ ولهذا ورد في الأثر أن حملة العرش يسبحون الله، فيقول بعضهم: سبحانك على حلمك بعد علمك، ويقول بعضهم: سبحانك على عفوك بعد قدرتك. وفي الحديث «ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه».

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ

بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ .

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به ويرسله من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة، وما ألقوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك، بل بمجرد الهوى والعصية، فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له: «زرادشت» ثم كفروا بشرعه فرجع من بين أظهرهم والله أعلم. والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب لكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصية، ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فوسمهم كفار بالله ورسله ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي في الإيمان ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً ومسلكاً.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ .

ثم أخبر تعالى عنهم فقال ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به، لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً؛ وأقوى برهاناً منه، أو نظروا حق النظر في نبوته. وقوله ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع

حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد نبوته كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان الرسول ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة وخالفوه وكذبوه فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ .

يعني بذلك أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي بعثه الله، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل، والعطاء الجميل، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجْرَهُمْ﴾ على ما آمنوا بالله ورسوله. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي لذنوبهم، أي إن كان لبعضهم ذنوب.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ .

سأل اليهود رسول الله ﷺ، أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي بطغيانهم وبغيهم وعتوهم وعنادهم. وقوله ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة، والأدلة القاهرة على يد موسى في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدوهم فرعون، وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا سيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الاعراف: 138] واتخذوا العجل فجعل الله توبتهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم متعبده فجعل يقتل بعضهم بعضاً، ثم أحياهم الله عز وجل، وقال تعالى ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُوسَىٰ سُلْطٰنًا مُّبِينًا﴾ .

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمُ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٨﴾﴾ .

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى ﷺ فرفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم الزموا فالتزموا وسجدوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم كما قال تعالى ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَيْتٍ فَوْقَهُمْ كَانَتْ ظِلَّةً وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الاعراف: 171] ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً، وهم يقولون حطة، أي اللهم حط عنا

ذنوبنا في تركنا الجهاد، ونكولنا عنه حتى تهنا في التيه أربعين سنة، فدخلوا يزحفون على أستاذهم، وهم يقولون: حنطة في شعرة ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت، والتزام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعاً لهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا عَلِيًّا﴾ أي شديداً فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل .

﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥٥) .

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم الموثق والعهد التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أي بحججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدها على يد الأنبياء ﷺ . وقوله ﴿وَقَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وذلك لكثرة إجرامهم، واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جماعاً غفيراً من الأنبياء ﷺ . ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، أي في غطاء، وهذا كقول المشركين ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْثَرِ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [نصت: 5] وقيل: معنا أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم، أي أوعيه للعلم قد حوته وحصلته، قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فعلى القول الأول كانوا يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي لأنها في غلف وفي أكنة، قال تعالى: بل هي مطبوع عليها بكفرهم، وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان .

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦) .

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦) فقد رموها وابنها بالعظام فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك، زاد بعضهم وهي حائض فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة .

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ سُبُّهُ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ (١٥٧) .

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه، وهذا فهم من باب التهكم والاستهزاء كقول المشركين ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: 6] وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، ومع كل هذه المعجزات كذبوه وآذوه بكل ما أمكنهم، حتى كان عيسى ابن مريم لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمن، وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب بأن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويفسد على الملك رعاياه فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه أن يقبض على هذا المذكور

وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، وذهب نائب الملك بالمقدس هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى ابن مريم، وهو في جماعة من أصحابه فحضره هناك، فلما أحس بهم، وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه إليهم قال لأصحابه: أيكم يلقي عليه شبيهي وهو رفيقي في الجنة فانتدب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب، فقال: أنت هو، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو، وفتحت روزنة من سقف البيت وأخذت عيسى سنة من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِمَ أَتَيْتَكَ وَرَافِعَكَ . . .﴾ [آل عمران: 55] فلما رفع خرج أولئك نفر، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه، وتبجحوا في ذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقيون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو عيسى ابن مريم حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، وقال: إنه خاطبها. والله أعلم. وهذا كله من امتحان الله عباده لما له في ذلك من الحكمة البالغة. وقد أوضح الله الأمر وأظهره في القرآن العظيم فقال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه، فمن ادعى أنه قتله من اليهود، ومن سلم هذه الدعوى من جهال النصارى كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١٥٨)

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي منيع الجنب، لا يرام جنبه، ولا يضام من لاذ ببابه.

﴿حَكِيمًا﴾ أي في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة والسلطان العظيم، والأمر القديم.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (١٥٩)

قال بعضهم: معنى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعني قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام. وقال آخرون: معنى ذلك، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي، والقول الأول أولى بالصحة لأنه المقصود من سياق الآي، فعيسى باقٍ حي وسينزل قبل قوم القيامة، وسيؤمن به أهل الكتاب قبل موته. وفي الحديث «يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، يقتل الدجال، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويفيض المال، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين»، قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا . . .﴾ رواه مسلم. وروى البخاري قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت موسى وعيسى وإبراهيم، فعيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط».

﴿فَيُظَاهِرُ مِنَّا الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ﴿١١٥﴾ .

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أهلها لهم . وجميع الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل والبانها، ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَرِمَ الْبَقَرِ وَالْفَنَرِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُهُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: 146] وقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق، وهذه سجية لهم متفقون بها من قديم الدهر وحديثه، ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خلقاً كثيراً من الأنبياء، وكذبوا عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿١١٦﴾ .

أي الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل، وأكلوا أموال الناس بالباطل.

﴿لَنَكِينِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١١٧﴾ .

أي الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ...﴾ أنزلت في عبد الله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسد بن سعيد وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الإسلام. ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ زكاة الأموال، أو زكاة التقوى، أو الأمرين معاً. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ أي يصدقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيراً وشرها. ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْ هَمَّ إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ وَعِيسَى وَأَيُّوبُ وَيُوسُفُ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانُ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ ﴿١١٧﴾ .

قال جماعة من اليهود: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى فأنزل الله هذه الآية. والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام.

﴿وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (١١٤).

وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن، وهم آدم وإدريس ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وكذا ذا الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ، وقوله ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أي خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن، وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل، وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله في تفسيره عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: كم الرسل منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير. قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: «آدم». قلت: يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: «نعم خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً». . . . وقوله ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ وهذا تشريف لموسى ﷺ بهذه الصفة، ولهذا يقال له: الكليم. جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال: سمعت رجلاً يقرأ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ينصب لفظ الجلالة، فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر، وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرّف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى ﷺ، أو يكلم أحداً من خلقه، كما روينا عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ فقال له: يا ابن اللخنا، كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: 143].

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١١٥).

أي يبشرون من أطاع الله، واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره، وكذب رسوله بالعقاب والعذاب. وقوله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ . . .﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه، وأرسل رسله بالبشارة والندارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقى للمعتذر عذر كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَتَخْزَى﴾ [طه: 134] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين» وفي لفظ آخر «من أجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه».

﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١١٦).

لما تضمن قوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ...﴾ إثبات نبوته ﷺ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب قال الله تعالى ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب، وهو القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١١٦) [فصلت: 42] ولهذا قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البيئات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكره وبأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدمة التي لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به كما قال تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255] عن عطاء بن السائب قال: أقراني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم: «إني لأعلم، والله إنكم لتعلمون أني رسول الله» فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ...﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلًّا بَعِيدًا﴾ (١١٧).

أي كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحق، وسعوا في صد الناس عن اتباعه، والافتداء به فهو لاء خرجوا عن الحق، وضلوا عنه، وبعثوا منه بعداً عظيماً شديداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ (١١٨).

ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصد عن سبيله، وارتكاب مآثمه، وانتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ أي سبيلاً إلى الخير.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَلِيدٍ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١١٩).

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء منقطع.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا

فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١٢٠).

أي قد جاءكم محمد صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق، والبيان الشافي من الله عز وجل، فآمنوا بما جاءكم به، واتبعوه يكن خيراً لكم ثم قال ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ...﴾ أي فهو غني

عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا بِأَنَّهُ لَغَيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8] وقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿حَكِيمًا﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَتَلَوُا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٧١).

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدون الله، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه من زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: 31] وفي الحديث «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله» وقوله ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً، وتنزهه وتقدس، وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولهذا قال ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذنه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب للأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها: كن فكان. والروح التي أرسل بها جبريل، فكان عيسى بالكلمة، قال مجاهد: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي ورسول منه، وقال غيره: ومحبة منه، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: 64] وفي قوله ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: 26] وكما روي في الحديث الصحيح «فأدخل على ربي في داره» أضافها إليه إضافة تشريف، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد. ﴿فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا ولد له، ولا صاحبة واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقوله ﴿انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي يكن خيراً لكم ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ أي الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة،

وولدا؟ قال تعالى: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 101].

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (١٧٢).
 ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ لن يستكبر، ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ...﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكم العدل الذي لا يجوز فيه ولا يحيف.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٧٣).
 أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتثانه. وقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا...﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60] أي صاغرين حقيرين ذليلين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤).

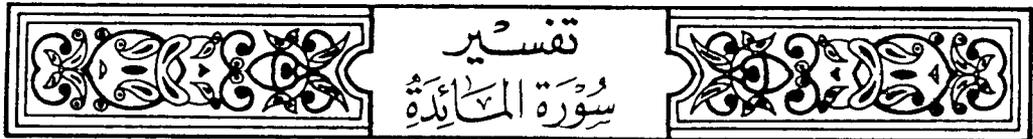
يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيله للشبهة، ولهذا قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ أي ضياء واضحاً على الحق، وهو القرآن.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (١٧٥).

أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم، أو اعتصموا بالقرآن. ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة، ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أي طريقاً واضحاً، قصداً قواماً، لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات، وفي الحديث «القرآن صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين».

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلِيلَةِ إِنْ أُمِرُوا هَلْكَ لَيْسَ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ بِرِثَتِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتْ أُنثَىٰ فَلَهَا النُّصَبُ بِمَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ الْأُنثَىٰ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٧٦).

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُتَبِّعُكُمْ فِي الْكَلاَةِ﴾ أي عن الكلاة. والكلاة مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد، ومن الناس من يقول: الكلاة: من لا ولد له كما دلت عليه هذه الآية ﴿إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلاَ﴾ وقد أشكل حكم الكلاة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت في الصحيحين أنه قال: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً تنتهي إليه: الجد، والكلاة، وباب من أبواب الربا. ﴿إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ﴾ أي مات، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] وقوله ﴿لَيْسَ لَهُ وَلاَ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلاة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلاة انتفاء الولد، ولكنه الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا والد. ويدل على ذلك قوله: ﴿وَلاَ أَخْتٌ فَلَهَا يَصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً، لأنه يحجبها بالإجماع فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد له بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية. وقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلاَ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالاً، وليس لها ولد أي ولا والد، لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض. أن معه من له فرض صرف إليه فرضه، كزوج، أو أخ من أم وصرف الباقي إلى الأخ، لما ثبت في الصحيحين «الحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فالأولى رجل ذكر» وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ أُمَّتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالاً أختان فرض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما، ومن هنا أخذ الجماعة حكم البنتين، كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ أُمَّتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً...﴾ هذا حكم الصبيان من البنين وبنين البنين والأخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين. وقوله: ﴿يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يفرض لكم فرائضه ويحد لكم حدوده ويوضح لكم شرائعه، وقوله ﴿أَنْ تَضِلُّوا﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى.



روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: إني لأخذة بزمام العضباء: ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة. وعن جبير بن نغير قال: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.